# مستويات القراءة في " كليلة ودمنة "
# "باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين"

**أحمد سعيد عبيدون***

**الملخّص**

انتقلت الدراسات الحديثة لكتاب كليلة ودمنة من الاهتمام بقضايا التاريخ ، والتوثيق ، والترجمة ، ورؤية العلاقات بين الأدب العربي والآداب الأخرى ، وكل ما يتعلق بالنواحي الخارجية للكتاب[1] إلى قضايا داخلية تخص النص من حيث قيمته الفنية ، وطرائق تركيبه اللغوي ، وعناصر القص فيه ؛ كالسرد ، والوصف ، والزمان ، والمكان ، والشخصيات ... ، وقضايا التأثير والتأويل التي تصنع سيرورة الكتاب ، وتكتشف سر بقائه . وفي هذا البحث نركز النظر على مستويات القراءة في الكتاب ، وقد بدأت تتأرجح في الظهور بين مستويين اثنين وثلاثة مستويات ، على ضربين : فيما يخص القارئ من جهة ، وفيما يخص النص من جهة مقابلة ، وتوصلت قراءة النصوص إلى أن المستويات الثلاثة هي الأساسية والسائدة في النص ، وفي القارئ ، مؤكدين ذلك بقراءة عملية تطبيقية لباب : ( الحمامة والثعلب ومالك الحزين ) ، ناظرين إلى طبيعة المكان والشخصيات التي أخذت تثبت هذا الوعي القرائي ذا المستويات الثلاثة وتؤكده ؛ تتدرج من البساطة باتجاه التعقيد ،ومن العاطفة باتجاه العقل ،وهي مستويات يمثل الأول فيها درجة العاطفة وعدم التفكير، والتصديق المطلق لما يقال، وعدم الخبرة والتجربة، ويمثل الثاني درجة التفكير الذي يختلط مع العاطفة والاستفادة من تجارب الآخرين معقله الخبرة والتجربة، أما الثالث فهو الدرجة التي تعتمد على الشك، والتفكير، والتفاعل ، وممارسة التجارب، والاستفادة منها، وتوظيفها بشكل يجلب النفع، ويساعد في التغلب على مشاكل الحياة .

**من النسق الثنائي إلى النسق الثلاثي :**

القارئ لكليلة ودمنة يلفت نظره النسق الثنائي من الأزواج المختلفة في الكتاب : كالحيوان والإنسان ، والظاهر والباطن ، واللهو والحكمة ، والهزل والسياسة ، والعامة والخاصة ، والملوك والفلاسفة ... وربما في أحيان أخرى يقع على أنساق ثلاثية : كالسباع والوحش والطير ، والعامة والملوك والخاصة ... وثمة فقرات وردت في الكتاب بعينها تشير إلى هذه الأنساق وتحددها في مجالات مختلفة تخص الحكم ، أو القراءة ، أو ممارسة الحياة وخوض تجاربها . ويمكن فحص بعض هذه النصوص ودراستها للوقوف على طبيعة هذه الأنساق وكيفية تجليها مبتدئين بهذا لنص الذي ورد في مقدمة الكتاب التي كتبها علي بن الشاه الفارسي و (( ذكر فيها السبب الذي من أجله عمل الفيلسوف الهندي رأس البراهمة لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه كليلة ودمنة وجعله على ألسنة البهائم والطير صيانة لغرضه فيه من العوام ، وضنًّا بما ضمَّنه عن الطغام ، وتنزيها للحكمة وفنونها ومحاسنها وعيونها ))[2]. ثم (( ذكر الذي كان من بعثة برزويه إلى مملكة الهند لأجل نقل هذا الكتاب ذكر فيها ما يلزم من مُطالِعِهِ من إتقان قراءته ، والقيام بدراسته ، والنظر إلى باطن كلامه ، وأنه إن لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه ))[3]

تظهر في النص السابق مجموعة من الثنائيات الفيلسوف الهندي ودبشليم ملك الهند ، والبهائم والطير ، والعوام والطغام ، وباطن الكلام وظاهره ... غير أن التأمل في هذه الأزواج في سياقها يكشف لنا التأكيد على الجانب المتفاعل في النص ؛ فالفيلسوف والملك هنا هما طرفا تسيير الحكم وشئونه ؛ الذي هو ثلاثة أطراف يكون الطرف الثالث فيها هم الناس الذين يقع

* أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية – كلية التربية بسيئون – جامعة حضرموت.

عليهم الحكم ، هذا ما يتعلق بالحكم ، أما ما يتعلق بالكتاب و كيفية قراءته ، وطبيعته من حيث الظاهر والباطن فقد جاء التعبير عنها في ثلاث درجات : إتقان قراءته ، والقيام بدراسته ، والنظر في باطن كلامه ، وهذه هي الطريقة التي يحصل بها مطالعُهُ على الغاية المرجوة منه ، وهو أمر ينتج عنه قارئ ورد في النص باسم العوام والطغام[4] ، وهما صنفان من الناس ينبغي أن يصان الكتاب عنهما تنزيها للحكمة التي فيه ؛ لذا لا بد أن يكون القارئ الحق للكتاب من طبيعة تختلف عنهما ؛ ينتمي إلى الحكمة الباطنة في الكتاب فهو قارئ حكيم ، وعليه فلدينا ثلاثة من القراء : العوام ، والطغام ، والحكماء .بقي في النص ما يتعلق بالحيوان ، وقد ذكر فيه : البهائم والطير ، غير أن هناك نصا في آخر الكتاب يفصّل البهائم والطير إلى ثلاثة أصناف : ((ثم جعل كلامه على ألسنة البهائم والسباع والطير ؛ ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام وباطنه رياضة لعقول الخاصة ))[5] .هذا التجلي الجديد لوصف الكتاب وكيفية قراءته يعمق ما تقدم ويفصّله في أطراف الحكم : الناس والملوك والفلاسفة في صورة : العامة والخواص والخاصة ؛ يشترك في هذا النص الخواص والعوام في فهم ظاهر الكتاب الذي هو اللهو ، أما باطنه فهو رياضة لعقول الخاصة حسب .كما يدل التوضيح الآتي :

| | | |
|---|---|---|
| الناس | الملوك | الفلاسفة |
| العامة | الخواص | الخاصة |
| العوام | الطّغام | الحكماء |

ومعنى ذلك أن الملوك يتأرجحون في الفهم بين العامة من جهة والخاصة الذين يعون الحكمة من جهة أخرى ، ويظل الخاصة والفلاسفة منهم أعلى مرتبة في العقل والفهم .

وفيما يخص منظومة القراءة نجد نصوصا تعمّق النظر الثلاثي في الفهم السابق مثل النص الذي يقول : (( ثم إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب ، وبلغ نهاية علمه فيه ينبغي له أن يعمل بما علم منه لينتفع به ويجعله مثالا لا يحيد عنه ))[6] . فإذا كانت القراءة في النص السابق تتطلّب : إتقان لقراءة ، والقيام بالدراسة ، والنظر في باطن الكلام ، فهي في هذا النص درجات ثلاث : فهم الكتاب ، وبلوغ نهاية العلم فيه ، والعمل بما علم ، كالآتي :

| | | |
|---|---|---|
| إتقان القراءة | الدراسة | النظر في الباطن |
| الفهم | بلوغ نهاية العلم | العمل |

ولن نعدم في الكتاب نصوصا أخرى تعتمد هذا التدرج في التقسيم الثلاثي للتفكير وللفهم والقراءة : (( فإن هناك أمورا ثلاثة العاقل جدير بالنظر فيها منها : النظر فيما مضى من الضر والنفع ، ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضار ، ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قبل النفع وما يخاف من قبل الضر ))[7]. وهو نظر ثلاثي يتعلق بالأزمنة : الماضي والحاضر والمستقبل .

ومثله تقسيم الرجال على أنواع ثلاثة :(( فإنه يقال : الرجال ثلاثة : حازم ، وأحزم منه ، وعاجز ))[8].

وفي الإخبار عن الأشياء وفهمها ثلاثة من الرجال أيضا : (( رجل يصدّق ما جرّبه غيره ، ورجل يصدّق بالأمور التي جرّبها ... ، ورجل تلتبس عليه الأمور ))[9].

وثمة أمثلة في الكتاب تتوارد هنا وهناك تتصل بالقراءة وتمثّلها تتعلق بحقلين من الأشياء في الطبيعة هما البحر والنبات ، ففي البحر نرى الأصداف والدرر والجواهر ، والجهد المبذول الذي ينبغي أن يبذل للغوص إليها ومعالجتها : (( فعلى قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمس جواهر معانيه ، ولا يظن أن نتيجته الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور فينصرف بذلك عن الغرض المقصود ))[10] . كحكاية من (( رأى صدَفة سَنيّة فلم يلتفت إليها وساء ظنه بها فتركها فاجتاز بها بعض الصيادين فأخذها فوجد فيها درة تساوي أموالا فأخذها ، فكذلك الجهال إذا أغفلوا أسرار معانيه ، والأخذ بظاهره دون الأخذ بباطنه ))[11] . هكذا إذن يمكننا أن نرى في هذا الحقل ثلاثة أمور : مكان الشيء وهو البحر ، ثم الصدفة ثم الدرة .

والحقل الثاني حقل النبات ويمكن الاستشهاد عليه بالنص الذي يتحدث عمن يصرف همته إلى المستوى الأول والسطحي من الكتاب المتعلق بالهزل واقفا عند كلام البهائم لا يتجاوزه إلى ما بعده : (( ومن صرف همته إلى النظر في أبواب الهزل فهو كرجل أصاب أرضا طيبة حرة ، وحَبًّا صحيحا ، فزرعها وسقاها حتى إذا قرب خيرها وأينعت ، تشاغل عنها بجميع ما فيها من الزهر وقطع الشوك فأهلك بتشاغله ما كان أحسن فائدة وأجمل عائدة ))[12] . وهذا يعني أنه ينبغي أن نصبر على النبات حتى ينمو ، ثم يزهر ، ثم يثمر ، فهذا الرجل كان يفتقد الصبر الكافي على النبات ، فلما أزهر شغله الزهر فلم ينتظره حتى ينتقل إلى مرحلة الإثمار فأفسده وأذهب قيمته التي يمكن أن تعود عليه بالنفع والتي هي مراد الزارع من النبات ومقصده . إذن ثمة مراحل ثلاث: النبات ، ثم الزهر ، ثم الثمر .

وفي هذا الحقل يمكن رؤية النص : (( وكذلك من قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه ، ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا لم ينتفع بما بدا له من خطِّه ونقشِه ، كما لو أن رجلا قُدِّم له جوزٌ صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره ))[13]. هكذا تكون الجوزة صورة أخرى من الثمرة في الشجرة ، ومن الدرة في الصدفة كما يوضح الشكل الآتي :

| | | |
|---|---|---|
| البحر | الصدفة | الدرة |
| النبات | الزهر | الثمر |
| الشجرة | الجوزة | اللب |

وينبغي ألاّ نغفل الأداة التي تنتقل بنا في القراءة من الشك إلى اليقين ، ومن الغفلة إلى الانتباه ، ومن سوء الظن إلى حسن الظن، وقد تجلت هنا في كلمات مثل : الكسر، وقبل ذلك فيما تقدم من نصوص في : التفكّر ، وإدامة النظر ، والصبر ، وإعمال الرويّة . هكذا تتعلق المسألة بالقارئ ؛ فهو إن وقف على المعنى الأول فهو قارئ جاهل ينتمي إلى العامة ، وإن تجاوز المعنى الأول الظاهر إلى الباطن فهو قارئ ينتمي إلى الحكمة ، وحينئذ يختلف القارئ في تلقيه لهذه الحكمة ووعيه في الاستفادة منها ، فإن اكتفى بوعيها من غير أن يطبقها في حياته ويعمل بها فهو قارئ قاصر معرض للخطر لأنه لا يصل

الفهم بالتطبيق ، ولا العلم بالعمل ، كما يفعل النوع الثالث من القراء .

ومن هنا كما يقول الناقد عبد الفتاح كليطيو : (( يمكن استخلاص صور ثلاث للقارئ يرسمها كتاب كليلة ودمنة ، هناك أولا القارئ السخيف الذي يتوقف عند السرد ، عند " الهزل " و " اللهو " أي عند الأحداث السردية في حد ذاتها ، وهناك ثانيا القارئ الفطن الذي يتجاوز مرحلة السرد ويهتدي إلى الحكمة ، ولكنه يتوقف عند هذا الشوط ، وهناك ثالثا القارئ العاقل الذي يستوعب الحكمة ويخضع سلوكه لأوامرها ونواهيها ))[14] . كما يرى أيضا للنص أو ما يسميه : المثَل ثلاثة مستويات أيضا (( ولكل مستوى قارئ معين ، القارئ المثالي هو طبعا القارئ الثالث الذي ينتقل من السرد إلى الحكمة ثم من الحكمة إلى العمل ومن لا يتشبه بهذا القارئ لا يعد في نظر بيدبا وابن المقفع جديرا بأن يقرأ ))[15]. غير أن كيليطو يحتار في نص يضعه في هامش كتابه صنّف فيه ابن المقفع قارئ كليلة ودمنة أربعة أصناف ، ويرى أنه تصنيف مختلف شيئا ما[16] . غير أن القراءة المتأملة للنص تكشف أن الصنف الثالث فيه ليس سوى تكرير للصنف الثاني : يقول ابن المقفع : (( وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشباب فتستمال به قلوبهم له لأنه الغرض الوارد من حيل الحيوانات ، والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسا لقلوب الملوك ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور ، والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبدا ، والغرض الرابع وهو الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة ))[17]. وحين نحلل هذه الأقسام ( الأغراض ) الأربعة سنرى أنها ليست سوى ثلاثة ، فالمخاطب في الغرض الثاني هم : الملوك ، والمخاطب في الغرض الثالث هم : الملوك والسوقة ، وعليه فالملوك يخاطبون مرتين ؛ مرة بوصفهم ملوكا يفترقون عن الناس ، ومرة بوصفهم ملوكا يتفقون مع السوقة في تذوق المتعة ، وهنا تزداد سيرورة الكتاب فيكثر انتساخه وتصويره ، وعليه فالمصور والناسخ ليس قارئا للكتاب ولكنه أداة لعمل تكثيره ونشره لهدف الانتفاع والربح لا العلم فهما لا يعدوان أن يكونا تاجرين لا أكثر . أضف إلى ذلك أنه صدّر النوع الثالث بهذه العبارة : ( أن يكون على هذه الصفة ) أي الصفة التي جاءت في أقرب غرض وهو الثاني مما يدل على أنهما . الثاني والثالث . غرض واحد موسّع كالآتي :

| الأول | على ألسنة البهائم | أهل الهزل من الشباب |
|---|---|---|
| الثاني | خيالات الحيوانات | الملوك |
| الثالث | خيالات الحيوانات | الملوك والسوقة |
| الرابع | خيالات الحيوانات | الفيلسوف |

هكذا إذن يكون القراء في هذا النص ثلاثة : أهل الهزل ، والملوك ، والفلاسفة ، وهي المستويات الثلاثة السابقة نفسها .

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين[18]

**الحمامة :**

يكشف لنا المكان المتصل بالحمامة [19] أنه مكان ذو اتجاه عمودي ، من أسفل إلى أعلى ، من الأرض إلى السماء ، فهي (( تفرخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء ، فكانت الحمامة تشرع في نقل العش إلى رأس تلك النخلة ))[20] وهو وصف يجعل الحمامة تنتقل من مكان القرب إلى مكان البعد الشديد كما يدل الوصفان : " طويلة " و " ذاهبة في السماء " ، فهما وصفان يحرصان على إبعاد العش عن الأرض والنجاة به في مكان آمن في أعلى مكان في هذه النخلة وهو رأسها . لا شك أن العش هنا وهو يوجد في رأس النخلة إنما يراد منه أن يكون في الحماية والأمان من الأخطار التي يمكن أن تواجهها الحمامة وصغارها الذين ستضعهم في العش بعيدا عن أعين المتربصين والباحثين عن الطعام في الأرض من الوحوش والسباع والهوام ؛ ولكي تحصل على هذا الأمان فإنها تقاسي التعب والمشقة (( فلا يمكنها أن تنقل ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسحقها ))[21].

هذا المكان بهذه الصفات من العمودية : العلو والسماوية والبعد عن الأرض الأمان والحماية والقدرة على التحرك له علاقة وثيقة بطبيعة هذه الشخصية الرقيقة التي تنتمي إلى جنس الطيور ؛ فالحمام كما جاء في لسان العرب : طائر يطلق على جنس الطيور ذكرا كان أم أنثى والجمع حمام...كما يطلق أيضا على المرأة والمرأة الجميلة[22] ، ولعل هذا يكشف لنا طبيعة الرمز المتداخل بين الإنسان والحيوان وهو أمر سنرى توازيا له مع بقية الشخصيات في نهاية القراءة . إن في الحمامة ثمة ما يدل يقينا . غير التأنيث اللفظي . على أنها أنثى ؛ لأنها تصنع العش وتبيض وتحضن بيضها : (( فإذا فرغت من العش باضت ثم حضنت بيضها ...))[23].

إن هذه الصفات في المكان تتناسب مع الطبيعة الشخصية للحمامة بحيث تكشف دلالة النقاء والصدق ، وهو أمر يجعل من الحمامة . وهي أم . أقرب في التصرف للميل نحو العاطفة والحنان والحب ، لذلك يمكن أن تكون فريسة سهلة للاستغلال والمكر وهو الأمر الذي دُهيت به مع الثعلب . إن صفات الصدق والخوف المنتمية إلى العاطفة هي التي غلبت عليها في تعاملها مع الثعلب من جهة ، ومع مالك الحزين من جهة أخرى مع اختلاف طبيعة هذا التعامل ، فالفعل الذي يقوم به الثعلب لكي يجعل الحمامة تلقي إليه بفرخيها هو : التهدد والصياح : (( يتهددني ويصيح ))[24] . وهو كما يبدو في السياق تهدّد بالتّرقّي لطلوع النخلة وأكل الحمامة وفراخها ، فالهد والهدد الصوت الشديد والغليظ ، والتخويف والوعيد .[25] ، أي إنه كان يستثير فيها العاطفة الشديدة ؛ ليجعلها في حالة نفسية مرتبكة من الخوف والفزع ؛ وهو ما أعلنت عنه حين كانت تحكي حالتها مع الثعلب لمالك الحزين : (( أن ثعلبا دُهيت به كلما كان لي فرخان جاء يتهددني ويصيح في أصل النخلة فأفرق منه فأطرح إليه فرخيّ ))[26]. لم تستطع الحمامة التفكير ولا النظر وهي في هذه الحالة من الخوف ، لم تفكر في حالها وهي التي وضعت عشها في راس نخلة طويلة ساحقة الطول خوفا من مواقف تشبه هذا الموقف ، لقد أعمى الخوف قلبها ولم يترك فيه مساحة للتفكير ولا للتبيّن .

**مالك الحزين :**

لو فتشنا النص بحثا عن مكان مالك الحزين لظفرنا بإشارتين تدلان عليه : الأولى عندما حط على النخلة : (( إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة ))[27] غير أن وقوعه هذا كان عابرا مؤقتا ريثما يستطلع أمر الحمامة ويستفهم عن حالها من الحزن ، فالنخلة بالنسبة إليه مكان عابر مؤقت ، أما مكانه الحقيقي فهو شاطئ النهر ؛ لأنه ريثما أنهى كلامه مع الحمامة (( طار فوقع على شاطئ نهر ))[28] ، كذلك عندما طلبه الثعلب وجده على شاطئ النهر : (( فتوجه الثعلب حتى أتى مالكا الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفا ))[29] . إذن مكان مالك الحزين الحقيقي هو شاطئ النهر وهو مكان وسط بين الفضاء مكان الحمامة والأرض مكان الثعلب كما سيأتي ، وهو مكان قلق يجمع مخاطر البر والبحر معا ، أما حركته فيبدو أنها تشبه حركة الحمامة في كونها عمودية إلا أنها تختلف عنها في الاتجاه ؛ كانت الأولى من أسفل إلى أعلى ، أما الثانية فمن أعلى إلى أسفل من السماء إلى الأرض وتحديدا إلى الماء .

يتكون اسم مالك الحزين من جزأين: الأول يدل على الملكية ، والثاني يدل على الحزن وهو أمر لا يخلو من دلالة ، فإذا كانت الحمامة تحمل إشارة إلى المرأة فإن مالكا الحزين هنا يشير من طرف لغوي إلى الملك ، غير أنه ملك حزين ! وهي إشارة إرهاصية إلى طبيعة السلوك الذي يتميز به والمصير الذي سيؤول إليه من الموت . إن سمة الحزن هنا على درجة كبيرة من الأهمية لأنها هي التي جعلته يطير ويقترب من الحمامة ويستفهم عن حزنها ، فلم يكن يثير مالكا الحزين سوى هذه السمة المميزة من الحزن والكآبة : (( فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها يا حمامة مالي أراك كاسفة البال سيئة الحال ؟ ))[30]. إن هذا الانقسام في اسم مالك الحزين بين الملكية والحزن ، ينقسم عليه أيضا بوصفه طائرا فضائيا يستطيع أن يطير ويصبح ملكا في الجو وحينئذ يمكن أن يقول الحكمة ويعطيها للآخرين كما فعل للحمامة ، أما حين يكون أرضيا أو بشكل أدق مائيا فإن الجزء الثاني من اسمه هو الذي يحضر ويسمه بالحزن أو الموت ، فهو يفقد حكمته ويقع فيما نصح به غيره من البلاء . إن نصيحته للحمامة أقرب ما تكون إلى النصيحة المحفوظة غير المجرّبة ؛ لأنها تشرح الحل بسذاجة ظاهرة لم تحصنّه من مطاردة الثعلب له والظفر به ؛ تترك الباب مفتوحا لتعقّبه والوصول عليه : (( إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولي له لا ألقي إليك فرخي فارقَ إليّ وغرّر بنفسك ، فإذا فعلتَ ذلك وأكلتَ فرخيّ طرتُ عنك ونجوتُ بنفسي))[31] . هكذا تبدو الحيلة درسا بسيطا تتعلمه الحمامة ؛ لذا تبدو الكلمات الدالة عليها تؤكد هذا التعليم ثلاث مرات : على لسان الراوي : (( فلما علّمها مالك الحزين هذه الحيلة طار ... ))[32] ، وعلى لسان الثعلب:((أخبريني من علّمك هذا ؟))[33]، وأخيرا على لسان الحمامة (( قالت علّمني مالك الحزين ))[34] . وهكذا انتقلت الحمامة من الجهل إلى التعلّم وبدأت العاطفة عندها تكتسب شيئا من الثبات في اتجاه نحو التفكير .

**الثعلب :**

الحمامة ومالك الحزين طائران في حين الثعلب حيوان ، وهذا يعني أن المكان الذي يحتويه ويتحرك فيه مكان أفقي وهو الأرض ، وثمة في النص إشارات يمكن العثور عليها تشير إلى هذا المكان ، فهو حين يجيء إلى الحمامة (( يقف بأصل النخلة ))[35] ، وفي المرة الثانية يتهدد ويصيح (( بأصل

النخلة ))[36] ، وفي المرة الثالثة : (( فوقف تحت النخلة ))[37] ، وتبدو كلمة ( تحت ) مفسّرة لكلمة ( أصل ) وشارحة لها ، وفي اللسان الأصل أسفل كل شيء[38] ، ولعلنا نلحظ أن الثعلب حين كان متصلا بخداع الحمامة كانت الكلمة المستخدمة هي : ( أصل ) ، أما حين تعلّمت درس مالك الحزين فإننا نجد الكلمة قد تغيرت إلى : ( تحت ) مما يجعل الثعلب يظل حينئذ تحت النخلة مقطوعا عن أصلها . النخلة إذن أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء هكذا إذن تكون أمكنة هذه الشخصيات الثلاث:

| الحمامة | مالك الحزين | الثعلب |
|---|---|---|
| الفضاء | الماء ( شاطئ النهر ) | الأرض |
| عمودي | عمودي . أفقي ( منحرف ) | أفقي |

يتحرك الثعلب على سطح الأرض بشكل أفقي جنوبا وشمالا وشرقا وغربا ؛ في الاتجاهات جميعها ،في حين تكون حركة الحمامة عمودية من أسفل إلى أعلى ، ومالك الحزين من أعلى إلى أسفل ولكن باتجاه شاطئ النهر الذي لا شك لن يكون مستقيما كما جذع النخلة الطويلة وإنما بانحراف ما جهة الماء .هذا يوازي حركة العقل من العاطفة الكاملة عند الحمامة ، إلى العاطفة المقترنة بشيء من التفكير عند مالك الحزين ، إلى التفكير الكامل الخالي من العاطفة كما هو الأمر مع الثعلب .

الثعلب اسم مذكر كما جاء في اللسان[39] ، والحمامة مؤنث كما سبق ، أما مالك الحزين فهو مذكر ولكن فيه شيء من صفات الأنوثة الموجودة عند الحمامة وهو الحزن ، والحزن غالبا يقترب من الصوت لا من الكلام فهو أنين وشكوى ، وهذا يعني أن العقل يسير من الأنوثة باتجاه الذكورة ، كما يعني أيضا اتجاهه من الصدق والنقاء إلى المكر والخديعة، كما يعني أيضا أن حركته متجهة من الصوت إلى الكلام : فالمسافة الساحقة التي تفصل الثعلب عن الحمامة لم تكن هي السبب في استخدام الثعلب لصوته بدلا عن كلامه لاستدراج الحمامة إنما كان الهدف هو الترويع والإفزاع حتى تختل عاطفيا فتفرَق وتلقي إليه بفرخيها ، فالصوت كان الوسيلة التواصلية الوحيدة معها في وظيفة التهديد والوعيد بالقتل للحمامة نفسها وليس لفراخها ؛ لذا لم ينفعه الصياح في المرة الثانية فقد اكتسبت الحمامة شيئا من العقل بعد تعلّم الدرس من مالك الحزين وتكلمت فاضطر الثعلب للكلام ليعرف صاحب هذه الدرس وهذه الحيلة :

| الحمامة | مالك الحزين | الثعلب |
|---|---|---|
| مؤنث | مذكر . مؤنث | مذكر |

الثعلب هو الكائن المتحرك على الأرض بشكل أفقي في الاتجاهات جميعها ؛ لذلك كانت الحيلة التي جعلها طعما في صنارته لمالك الحزين هي كذلك حيلة ذات حركة أفقية ؛ من اليمين إلى الشمال ، ومن الشرق إلى الغرب كما يمكن أن تكون أيضا في الاتجاهات جميعها وهي ( الرّيح ) ، لقد استطاع الثعلب أن يجعل من حيلته ريحا تهب من كل مكان لقد كان الثعلب في شاطئ النهر يصطاد مالكا الحزين بشبكته اللغوية فلا يستطيع منها الفكاك : (( إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك ؟ قال : عن شمالي ، قال فإذا أتتك عن شمالك أين تجعل رأسك ، قال أجعله عن يميني أو خلفي ، قال فإذا أتتك الريح

من كل مكان وكل ناحية أين تجعله ؟ قال أجعله تحت جناحي ))[40] .

بالنظر إلى الشخصيات الثلاث يمكن ملاحظة ثلاث درجات من العقل : تمثل الحمامة درجة الصفر فيها ( العاطفة ) في الصدق والتصديق ، في حين يمثل مالك الحزين درجتين في الشك والتفكير ، فقد أعطى الحيلة للحمامة لكنه ترك الباب مفتوحا خلفه للثعلب ، أما الثعلب فهو الوحيد الذي يمثل في تحركاته ثلاث درجات من الوعي والعقل ؛ فهو يراقب الحمامة حين تبيض أولا ، ثم تحضن بيضها ثانيا ، ثم يفقس البيض ثالثا ويخرج الفراخ ، هذه الدرجات الثلاث هي جزء من بناء عقله يدركها ويعلمها ويتصرف على هداها : (( باضت ثم حضنت بيضها ، فإذا فقست ، وأدرك فراخها جاءها ثعلب تعهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ما ينهض فراخهافيقف بأصل النخلة ويصيح ))[41]. هكذا إذن يتميز الثعلب بالتعهّد ، والعلم ، وحساب الوقت بقدر ، عندها يجيء ويقف بأصل النخلة ويصيح ، وهذه الدرجات الثلاث من الوعي هي التي استخدمها الثعلب مع مالك الحزين في اصطياده :

ـ إذا أتتك الريح عن يمينك .

ـ فإذا أتتك عن شمالك .

ـ فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية .

لم يكتف الثعلب بالحيلة وحدها بل عزّزها بعنصرين عاطفيين كانا ما زالا يمثلان فراغا قابلا للاستدراج في عقل مالك الحزين :

. الأول الإنكار وعدم التصديق : (( وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك ، ما أراه يتهيأ لك ))[42].

. والثاني المديح والثناء ومخاطبة العاطفة : (( فلعمري يا معشر الطير لقد فضلكن الله علينا أنكن تدرين في ساعة واحدة ما ندري في سنة ، وتبلغن ما لا نبلغ ،وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح فهنيئا ))[43] .

**في الرمز :**

لقد جاء في مقدمة كليلة ودمنة : أنه (( جعل كلامه على ألسنة البهائم والسباع والطير ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام وباطنه رياضة لعقول الخاصة))[44]. (( فصار الحيوان لهوا وما ينطق به حِكما وأدبا))[45]. ومعنى ذلك أن الحيوانات فيه إنما هي رموز وأمثلة على الناس فهناك العامة وهناك الخاصة وهناك خاصة الخاصة ، وفي هذا النص يمكن أن نرى في إشارات الحمامة وطبيعتها العاطفية وكونها أمًّا ترعى صغارها وما يشير إليه اسمها في المعجم إلى المرأة كل ذلك يقوى كونها ترمز إلى المرأة . أما مالك الحزين فقد دلت إشاراته على شبهه بالملك فاسمه مالك ، وقد كال له الثعلب المديح والثناء كما يفعل مع الملوك لذا فإن صلته بالملك في رمزيته أقرب ، وهذه هي طبيعة الملوك في السيطرة والانخداع . أما الثعلب فهو أقرب شبها بالوزير الذكي الذي يسيّر الملك ويقتاده لأغراضه التي يريد .

**في القارئ :**

بقي أخيرا القارئ لكتاب كليلة ودمنة عليه أن يكون قارئا من الدرجة الثالثة في الصبر والأناة والتفكير عليه (( أن يديم النظر فيه من غير ضجر ويلتمس جواهر معانيه ولا يظن أن نتيجته الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور فينصرف بذلك عن الغرض المقصود ))[46] . هكذا تبدو في النص قراءة عاطفية ساذجة تقف عند السرد وتصدق المستوى الأول من الكلام ومن الحيوانات وهو (مستوى القارئ الحمامة ) والثاني ( مستوى القارئ مالك الحزين ) الذي يقف عند الحكمة فقط من غير أن يجربها ويطبقها في الواقع على نفسه ، والثالث ( مستوى

القارئ الثعلب ) الذي يفكر ثلاث مرات ويعالج غرضه بالحيلة والصبر والتأني ينتظر حمامة النصحتى تضع بيضها وتحتضنه ثم ينتظرها حتى تفقس ويخرج منها فراخ المعاني اللذيذة ، وكل مرة يجيء إليها يصبح قادرا على الحصول على معان أخرى.

**خاتمة :**

الوعي القرائي في كتاب كليلة ودمنة وعي متفاوت بين درجات ثلاث من الوعي تتدرج من البساطة باتجاه التعقيد ، ومن العاطفة باتجاه العقل ، وهي درجات تمثل الدرجة الأولى فيها مستوى العاطفة، وعدم التفكير ، والتصديق المطلق لما يقال، وانعدام الخبرة والتجربة ، وتمثل الثانية مستوى التفكير الذي يختلط مع العاطفة، والاستفادة من تجارب الأخرين معقلة الخبرة والتجربة، أما الثالثة فهي الدرجة التي تعتمد على الشك والتفكير وممارسة التجارب والاستفادة منها وتوظيفها بشكل يجلب النفع ويساعد في التغلب على مشاكل الحياة ، يتجلى فيها القارئ بألفاظ مختلفة الدرجة مثل : الإنسان ، والرجل ، والصياد ، والزارع ... في أزواج ثلاثية من : الناس ، والملوك ، والفلاسفة . والعامة ، والخواص ، والخاصة. والعوام ، والطغام ، والحكماء . ، وأهل الهزل ، والملوك ، والفلاسفة . والعاجز ، والحازم ، والأحزم . والذي تلتبس عليه الأمور ، والمصدق بتجربة غيره ، وهو قارئ عاقل ينظر فيما مضى ( الماضي ) ، وفيما هو مقيم فيه ( الحاضر ) ، وفي مستقبل ما يرجو ( المستقبل ) . والمصدق بتجربته .ويمكن أن نضيف إليها لقارئ الحمامة ، والقارئ الحزين ، والقارئ الثعلب .

أما فيما يخص النص فهو يماثل القارئ في الطبقات الثلاث من الوعي : يجيء في ألفاظ صريحة على النص مثل : الكتاب . وألفاظ تمثيلية رمزية مثل الزراعة والصيد في درجات ثلاث : الكلام، والظاهر ، والباطن . وفهم الكتاب ، وبلوغ العلم ، والعمل . وإتقان القراءة ، والقيام بالدراسة ، والنظر في الباطن . والبحر ، والصدفة ، والدرة . والنبات ، والزهر ، والثمر . والشجرة ، والجوزة ، واللب . ويمكن أن نضيف كذلك : النص الحمامة ، والنص الحزين ، والنص الثعلب . كما يوضح الجدول الآتي :

| في القارئ | المستوى الأول | المستوى الثاني | المستوى الثالث |
|---|---|---|---|
| الإنسان | الناس | الملك | الفيلسوف |
| | العامة | الخواص | الخاصة |
| | العوام | الطغام | الحكماء |
| | أهل الهزل ( السوقة ) | الملوك | الفلاسفة |
| الرجال | العاجز | الأحزم منه | الحازم |
| | الذي تلتبس عليه الأمور | المصدق بالأمور التي جربها غيره | المصدق بالأمور التي جربها |
| العاقل | فيما مضى ( الماضي ) | فيما هو مقيم فيه ( الحاضر ) | في مستقبل ما يرجو ( المستقبل ) |

| في النص | المستوى الأول | المستوى الثاني | المستوى الثالث |
|---|---|---|---|
| الصيد | البحر | الصدَفة | الدرة |
| الزراعة | النبات | الزهر | الثمر |
| | الشجرة | الجوزة | اللب |
| النص | الكتاب | الظاهر | الباطن |
| | إتقان القراءة | القيام بدراسته | النظر في باطن كلامه |
| | فهم الكتاب | بلوغ نهاية العلم فيه | العمل بما علم |

النص

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين

وهو آخر الكتاب

قال دَبْشليمُ الملكُ لبَيْدبا الفيلسوف :قد سمعتُ هذا المثَلَ فاضرب لي مثَلا في شأن الرّجل الذي يرى الرّأي لغيره ولا يراه لنفسه .

قال الفيلسوفُ إنّ مثَل ذلك مثَل الحمامة والثعلب ومالك الحزين . قال الملك : وما مثَلُهنّ ؟

قال الفيلسوف : زعموا أن حمامةً كانت تُفرخُ في رأس نخلةٍ طويلةٍ ذاهبةٍ في السماء ، فكانت الحمامةُ تَشرَع في نقل العُش إلى رأس تلك النّخلة فلا يُمكنُها أن تنقُلَ ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدّة وتعب ومشقة لطول النّخلة وسُحقِها فإذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها فإذا فقَّستْ وأدرك فراخُها جاءها ثعلبٌ قد تعهّد ذلك منها لوقت قد علمه بقَدَر ما ينهض فراخُها فيقف بأصل النّخلة فيصيح بها ويتوعدها أن يرقى إليها أو تلقيَ إله فراخَها فتلقيها إليه ، فبينما هو ذات يوم وقد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة ، فلما رأى الحمامة كئيبةً حزينةً شديدة الهم قال لها يا حمامةُ مالي أراكِ كاسفة البال سيئة الحال ؟

فقالت : يا مالكُ الحزينُ إنَّ ثعلباً دُهِيتُ به ، كلما كان لي فرخان جاء يتهدّدُني ويصيحُ في أصل النّخلة فأفرَقُ منه فأطرحُ إليه فرخيَّ . قال لها مالكُ الحزينُ : إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولي له لا أُلقي إليكَ فرخيَّ فارقَ إليَّ وغرّر بنفسك فإذا فعلتَ ذلك وأكلتَ فرخيَّ طرتُ عنكَ ونجوتُ بنفسي ، فلما علّمها مالكُ الحزينُ هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر فأقبل الثعلب في الوقت الذي عرَفَ فوقف تحت النّخلة ثم صاح كما كان يفعل فأجابته الحمامة بما علَّمها مالك الحزين فقال لها أخبريني من علّمك هذا ؟ قالت علّمني مالك الحزين فتوجّه الثعلب حتى أتى مالكا الحزينَ على شاطئ النهر فوجده واقفا .

فقال الثعلب: يا مالك الحزين إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك ؟ قال : عن شمالي قال فإذا أتتك عن شمالك فأين تضع رأسك ؟قال : أجعله عن يميني أو خلفي ، قال فإذا اتتك الريح من كل مكان وكل ناحية أين تجعله ؟ قال : أجعله تحت جناحيَّ قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحيك ، ما أراه يتهيأ لك قال : بلى . قال فأرني كيف تصنع فلعمري يا معشر الطير لقد فضَّلكنَّ الله علينا أنَّكنَّ تدرِيْنَ في ساعةٍ واحدةٍ مثل ما ندري في سنة ، وتبلُغْنَ ما لا نبلغ وتُدْخلْنَ رؤوسَكنَّ تحن أجنحتكنَّ من البرد والريح فهنيئا لكنَّ فأرني كيف تصنع ؟ فأدخل الطّائر رأسه تحت جناحيه فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزَه همْزةً دقَّ عنُقَهُ ثم قال : يا عدوَّ نفسه ترى الرأي للحمامة وتعلّمها الحيلة لنفسها وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكّن منك عدوُّك ثم قتله وأكلَه.

**الهوامش:**

(1) انظر: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي: 332.
. الفن ومذاهبه في النثر العربي : 121 .
. ملامح النثر العباسي : 81 .

(2) كليلة ودمنة : 18 .

(3) المصدر السابق : 18 .

(4) الطغام أراذل الطير والسباع ، وأراذل الناس وأوغادهم ، قال الأزهري وسمعت العرب تقول للرجل الأحمق طغامة ، وقول علي رضي الله عنه لأهل العراق : يا طغام الأحلام ... كأنه قال : يا ضعاف الأحلام ،ويا طاشة الأحلام ؛ معناه : من لا عقل له ولا معرفة . انظر مادة طغم في لسان العرب .

(5) السابق : 18 .

(6) السابق : 83 .

(7) السابق : 53 .

(8) السابق : 156 .

(9) السابق : 89 .

(10) السابق : 97 .

(11) السابق : 98 .

(12) السابق : 98 .

(13) السابق : 83 ، من خطه ونقشه ، هكذا في الكتاب ، ولعلها : من خطه ونقشه .

(14) الحكاية والتأويل : 38 .

(15) المرجع السابق : 38 .

(16) انظر هامش الحكاية والتأويل : 38 .

(17) كليلة ودمنة : 98 . 99 .

(18) انظر المجموعة الكاملة لأثار عبدالله بن المقفع : 390 .

(19) للتعرف على مفهوم المكان وتطبيقاته انظر :
. جماليات المكان : 125 .
. البنية القصصية في رسالة الغفران : 60 .
. مشكلة المكان الفني ، ضمن كتاب جماليات المكان لمجموعة من الباحثين : 68 .
. المكان في رسالة الغفران . أشكاله ووظائفه : 50 .

(20) المصدر السابق : 390 .

(21) السابق : 390 .

(22) انظر لسان العرب مادة : حمم .

(23) كليلة ودمنة : 391 .

(24) المصدر السابق : 391 .

(25) انظر اللسان مادة : هدد .

(26) كليلة ودمنة : 391

(27) المصدر السابق : 391 .

(28) السابق : 391 .

(29) السابق : 392 .

(30) السابق : 391 .

(31) السابق : 391 .

(32) السابق : 391 .

(33) السابق : 391 .

(34) السابق : 391 .

(35) السابق : 391 .

(36) السابق : 391 .

(37) السابق : 391 .

(38) انظر لسان العرب مادة : أصل .

(39) انظر اللسان مادة : ثعل .

(40) كليلة ودمنة : 392 .

(41) المصدر السابق : 391 .

(42) السابق : 392 .

(43) السابق : 392 .

(44) السابق : 49 .

(45) السابق : 50 .

(46) السابق : 97 .

**المصادر والمراجع :**

1- الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي ، د. عبد المنعم خفاجي ، بيروت ، دار الجيل ، 1990 .

2- البنية القصصية في رسالة الغفران ، حسين الواد ، ليبيا . تونس ، الدار العربية للكتاب ، 1977 .

3- جماليات المكان ، جاستون باشلار ترجمة غالب هلسا ، بغداد ، دار الجاحظ ، 1980 .

4- جماليات المكان ، جماعة من الباحثين ، الدار البيضاء ، ط 2 ، 1988.

5- الحكاية والتأويل ؛ دراسات في السرد العربي ، عبد الفتاح كيليطو ، الدار البيضاء ، دار توبقال ، ط 2 ، 1999 .

6- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، د. شوقي ضيف ، القاهرة ، دار المعارف ، ط 10 ، 1983 .

7- لسان العرب ، ابن منظور ، القاهرة ، دار المعارف ، د ت .

8- المجموعة الكاملة لأثار عبد الله بن المقفع ، تحقيق طاهر الجزائري ، قدم لها وأشرف عليها عمر أبو النصر .

9- المكان في رسالة الغفران ؛ أشكاله ووظائفه ، عبدالوهاب زغدان، صفاقس ، ط 2 ، 1995 .

10- ملامح النثر العباسي ، د. عمر الدقاق ، بيروت دار الشروق العربي ، د ت .

11- منشرفة ابن رشد ، عبدالفتاح كيليطو،الدار البيضاء ، دار توبقال، ط 1 ، 2009 .

# Levels of reading in the book " kalila and Demna" ; chapter " Pigeon, Fox and grieved Malik"

**Ahmd Saieed Abadoon**

**Abstract**

The modern studies of " kalila and Demna" has moved the highlight from the issues of history, documentation, translation and visioning the relationship between Arabic and non Arabic literatures as well as all external aspects of the book to its internal issues such as the artistic value of the text, linguistic structure method, story elements like: narration, description, influence and interpretation that makes its continuation and discovers the secret of its existence…..time, place and characters. This study shed lights on the reading levels of the book that shown to be between two or three levels. They are categotized in to two types: reader's perspective in one side and the book on the other side. The reading of the texts comes up with that the three levels are basic and dominant in both book and reader emphasizing the nature of place and character of "Pigeon, Fox and grieved Malik" through scientific and applicable reading of that chapter that approves and insists knowlegable reading of the three levels. They rank from simple towards complicated and from emotion to mind. The first level featured with degree of emotion, lack of thinking and experience, complete belief in what's said whereas the second level is characterized by emotion mixed with thinking and benefiting from others experience accompanied by lack of experience and experiment. However, the third level depends on doubt, thinking, reaction, practicing and benefiting from them as well as utilizing in a way that bring welfare and helping in overcoming life's problems.